ما هو الإيمان الصحيح المرضي عند ربنا عز وجل

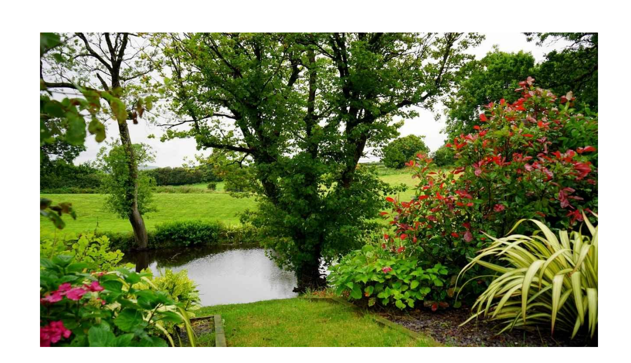
كتبه محرروا موقع الإصلاح بتاريخ 24-12-1443

https://alisslah.blogspot.com

إِنَّ مَوْضُوعَ الْإِيمَانِ الَّذِي سَوْفَ أُنَاقِشُهُ مَعَكَ الْيَوْمَ مِنْ أَخْطَرِ الْمَوَاضِيعِ الَّتِي يُمْكِنُ نِقَاشُهَا، إِنْ لَمْ يَكُنْ أَخْطَرُهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ عَذَابٌ أَبَدِيٌّ، أَوْ سَعَادَةٌ أَبَدِيَّةٌ، يَقُولُ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ:

(هذانِ خَصمانِ اختَصَموا في رَبِّهِم فَالَّذينَ كَفَروا قُطِّعَت لَهُم ثِيابٌ مِن نارٍ يُصَبُّ مِن فَوقِ رُءوسِهِمُ الحَميمُ۝يُصهَرُ بِهِ ما في بُطونِهِم وَالجُلودُ۝وَلَهُم مَقامِعُ مِن حَديدٍ۝كُلَّما أَرادوا أَن يَخرُجوا مِنها مِن غَمٍّ أُعيدوا فيها وَذوقوا عَذابَ الحَريقِ۝إِنَّ اللَّهَ يُدخِلُ الَّذينَ آمَنوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ جَنّاتٍ تَجري مِن تَحتِهَا الأَنهارُ يُحَلَّونَ فيها مِن أَساوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤلُؤًا وَلِباسُهُم فيها حَريرٌ۝وَهُدوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ القَولِ وَهُدوا إِلى صِراطِ الحَميدِ) [الحج: ١٩-٢٤]

فَنَحْنُ فِي مَوْضُوعِ الْإِيمَانِ، أَمَامَ خِيَارَيْنِ، إِمَّا مُؤْمِنَيْنِ، فَنَكُونُ مِمَّنْ قَالَتْ الْآيَاتُ أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا، وَيَلْبَسُونَ الْحَرِيرَ.



وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ كَافِرِينَ وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ، فَيَكُونُ مَصِيرُنَا النَّارُ، قُطِّعَتْ لَنَا ثِيَابٌ مِنْهَا، وَيُصَبُّ عَلَيْنَا الْحَمِيمُ وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ.



وَلَا خِيَارَ ثَالِثٌ، لِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ نَنْتَبِهَ غَايَةَ الِانْتِبَاهِ وَنَحْنُ نُنَاقِشُ مَوْضُوعَ الْإِيمَانِ لِأَنَّهُ هُوَ الْأَسَاسُ الَّذِي تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ سَعَادَتُنَا فِي الدُّنْيَا نَظَرًا لِكَوْنِ وَعْدِ اللَّهِ بِالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِوَعْدِ اللَّهِ بِالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ مُرْتَبِطٌ بِهِ، كَمَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ مَصِيرُنَا فِي الْآخِرَةِ أَيْضًا كَمَا بَيَّنَتْ الْآيَاتُ السَّابِقَةُ.

قَبْلَ مُنَاقَشَةِ مَوْضُوعِ الْإِيمَانِ أَوَدُّ أَنْ أُذَكِّرَكَ بِأَنَّهُ مَا لَمْ تَتَجَرَّدْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍتَتَجَرَّدْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ تَعْرِفُهُ مُسْبَقًا، وَتُقْبِلُ عَلَى الْآيَاتِ كَالصَّفْحَةِ الْبَيْضَاءِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَسْتَفِيدَ شَيْئًا، كَمَا سَبَقَ وَشَرَحْتُ بِالتَّفْصِيلِ، لِذَلِكَ أَدْعُوكَ لِلتَّجَرُّدِ مِمَّا تَعْرِفُ مُسْبَقًا حَتَّى نَبْدَأَ مِنْ الْبِدَايَةِ، وَنُؤَسِّسَ تَاسِيسًا صَحِيحًا نَسْتَطِيعُ مِنْ خِلَالِهِ الْوُصُولَ إِلَى مَعْرِفَةِ الْإِيمَانِ الْحَقِيقِيِّ الْمَرْضِيِّ عِنْدَ رَبِّنَا عَزَّ وَجَلَّ، وَالَّذِي سَوْفَ يَكُونُ عَبْرَ الْمَحَاوِرِ التَّالِيَةِ:

- تَعْرِيفُ الِايْمَانِ لُغَةً
- تَعْرِيفُ الِايْمَانِ فِي الْقُرْآنِ
- أَرْكَانُ الْإِيمَانِ
  - الْإِيمَانُ بِاَللَّهِ
  - الْإِيمَانُ بِالْمَلَائِكَةِ
  - الْإِيمَانُ بِالْكُتُبِ
  - الْإِيمَانُ بِالرُّسُلِ
  - الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ
  - الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ
- الْعَلَاقَةُ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ
- تَصَوُّرْنَا الْحَالِيُّ عَنِ الْإِيمَانِ
- تَأْثِيرُ تَصَوُّرِنَا عَنِ الْإِيمَانِ عَلَى وَاقِعِنَا

- الْخَاتِمَةُ

تَعْرِيفُ الْإِيمَانِ لُغَةً

سَبَقَ وَذَكَرْتُ أَنَّ مَعْرِفَةَ الْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ مُهِمٌّ جِدًّا فِي إِدْرَاكِ جَوْهَرِ مَا نَبْحَثُ عَنْهُ، فَالِاسْمُ مُخْبِرٌ عَنْ حَقِيقَةِ الْمُسَمَّى، لِذَلِكَ لَابُدَّ مِنْ أَنْ نَعْرِفَ مَاذَا تَعْنِي كَلِمَةُ "إِيمَانٍ" فِي لِسَانِ الْعَرَبِ أَوَّلًا، قَبْلَ الْبَحْثِ عَمَّا تَدُلُّ عَلَيْهِ فِي الْقُرْآنِ

كَلِمَةُ "الْإِيمَانِ" مُشْتَقَّةٌ مِنْ الْجِذْرِ "أَمْنٌ" وَمَعَانِيهَا تَدُورُ حَوْلَ الْأَمْنِ وَمَا يُوَدِّي إِلَيْهِ، يَقُولُ الْجَوْهَرِيُّ

[أمن] الأَمانُ والأَمانَةُ بمعنىً. وقد أَمِنْتُ فأنا آمِنٌ. وآمَنْتُ غيري، من الامن والامان. والايمان: التصديق. والله تعالى المُؤْمِنُ، لأنّه آمَنَ عبادَه من أن يظلمهم. وأصل آمَنَ أَأْمَنَ بهمزتين، ليّنت الثانية. ومنه المهيمن، وأصله مؤأمن، لينت الثانية وقلبت ياء، وقلبت الاولى هاء. والأَمْنُ: ضدُّ الخوف. والأَمَنَةُ بالتحريك: الأَمْنُ. ومنه قوله عز وجل: (أَمَنَةً نُعاساً) .

[الجوهري، أبو نصر ,الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ,5/2071]

وَقَالَ ابْنُ فَارِسٍ:

(أَمَنَ) الْهَمْزَةُ وَالْمِيمُ وَالنُّونُ أَصْلَانِ مُتَقَارِبَانِ: أَحَدُهُمَا الْأَمَانَةُ الَّتِي هِيَ ضِدُّ الْخِيَانَةِ، وَمَعْنَاهَا سُكُونُ الْقَلْبِ، وَالْآخَرُ التَّصْدِيقُ. وَالْمَعْنَيَانِ كَمَا قُلْنَا مُتَدَانِيَانِ. قَالَ الْخَلِيلُ: الْأَمَنَةُ مِنَ الْأَمْنِ. وَالْأَمَانُ إِعْطَاءُ الْأَمَنَةِ. وَالْأَمَانَةُ ضِدُّ الْخِيَانَةِ.

[ابن فارس، مقاييس اللغة، ١٣٣/١]

إِلَى أَنْ يَقُولَ :

وَأَمَّا التَّصْدِيقُ فَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا} [يوسف: 17] أَيْ: مُصَدِّقٍ لَنَا. وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّ " الْمُؤْمِنَ " فِي صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ أَنْ يَصْدُقَ مَا وَعَدَ عَبْدَهُ مِنَ الثَّوَابِ. وَقَالَ آخَرُونَ هُوَ مُؤْمِنٌ لِأَوْلِيَائِهِ يُؤْمِنُهُمْ عَذَابَهُ وَلَا يَظْلِمُهُمْ. فَهَذَا قَدْ عَادَ إِلَى الْمَعْنَى الْأَوَّلِ.

[ابن فارس، مقاييس اللغة، ١٣٥/١]

وَخُلَاصَةُ مَا سَبَقَ أَنَّ الْإِيمَانَ يَعْنِي التَّصْدِيقَ، لِأَنَّ التَّصْدِيقَ يُؤَدِّي إِلَى الْأَمْنِ حَيْثُ يُنْجِّي اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ، فَالْمُؤْمِنُ هُوَ مَنْ صَدَّقَ بِاَللَّهِ تَصْدِيقًا جَعَلَهُ يُأَمَّنُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ

تَعْرِيفُ الْإِيمَانِ فِي الْقُرْآنِ

إنَّ مَعْنَى الْإِيمَانِ فِي الْقُرْآنِ هُوَ نَفْسُهُ التَّصْدِيقُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى :

(قالوا يا أَبانا إِنّا ذَهَبنا نَستَبِقُ وَتَرَكنا يوسُفَ عِندَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئبُ وَما أَنتَ بِمُؤمِنٍ لَنا وَلَو كُنّا صادِقينَ) [يوسف: ١٧]

أَيْ بِمُصَدِّقٍ لَنَا.

هَذَا التَّصْدِيقُ لَا يَكُونُ حَقًّا إِلَّا إِذَا صَاحَبَهُ الْعَمَلُ بِمُقْتَضَاهُ، فَمُجَرَّدُ قَوْلِ أَنَا مُؤْمِنٌ دُونَ الْعَمَلِ لَا يُسَمَّى إِيمَانًا عِنْدَ اللَّهِ، بَلْ يُسَمَّى كُفْرًا أَيْ تَكْذِيبًا، وَالْأَدِلَّةُ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى :

(وَإِذ أَخَذنا ميثاقَكُم لا تَسفِكونَ دِماءَكُم وَلا تُخرِجونَ أَنفُسَكُم مِن دِيارِكُم ثُمَّ أَقرَرتُم وَأَنتُم تَشهَدونَ۝ثُمَّ أَنتُم هؤُلاءِ تَقتُلونَ أَنفُسَكُم وَتُخرِجونَ فَريقًا مِنكُم مِن دِيارِهِم تَظاهَرونَ عَلَيهِم بِالإِثمِ وَالعُدوانِ وَإِن يَأتوكُم أُسارى تُفادوهُم وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيكُم إِخراجُهُم أَفَتُؤمِنونَ بِبَعضِ الكِتابِ وَتَكفُرونَ بِبَعضٍ فَما جَزاءُ مَن يَفعَلُ ذلِكَ مِنكُم إِلّا خِزيٌ فِي الحَياةِ الدُّنيا وَيَومَ القِيامَةِ يُرَدّونَ إِلى أَشَدِّ العَذابِ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعمَلونَ۝أُولئِكَ الَّذينَ اشتَرَوُا الحَياةَ الدُّنيا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنهُمُ العَذابُ وَلا هُم يُنصَرونَ) [البقرة: ٨٤-٨٦]

فَقَوْلُهُ

أَفَتُؤمِنونَ بِبَعضِ الكِتابِ

أَيْ تَعْمَلُونَ بِبَعْضِ الْكُتَابِ، وَهُوَ مُفَادَاةُ الْأَسْرَى، وَقَوْلُهُ

وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ

أَيْ لَا تَعْمَلُونَ بِبَعْضٍ، وَهُوَ عَدَمُ سَفْكِ دِمَائِكُمْ وَإِخْرَاجُ بَعْضِكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ.

فَهُنَا سَمَّى اللَّهُ الْعَمَلَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ إِيمَانًا بِهِ، وَسَمَّى عَدَمَ الْعَمَلِ بِبَعْضِ الْكِتَابِ كُفْرًا بِهِ، مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كُلُّهُمْ يُقِرُّونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ بِأَنَّ الْكِتَابَ كُلَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَنْفَعْهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، حِينَ لَمْ يَعْمَلُوا بِهِ.

كَذَلِكَ إِذَا تَأَمَّلْنَا قَوْلَهُ تَعَالَى :

(مَثَلُ الَّذينَ حُمِّلُوا التَّوراةَ ثُمَّ لَم يَحمِلوها كَمَثَلِ الحِمارِ يَحمِلُ أَسفارًا بِئسَ مَثَلُ القَومِ الَّذينَ كَذَّبوا بِآياتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهدِي القَومَ الظّالِمينَ) [الجمعة: ٥]

وَوَضَعْنَا فِي الْحُسْبَانِ أَنَّ الْيَهُودَ يَعْتَرِفُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ بِأَنَّ التَّوْرَاةَ كَلَامُ اللَّهِ، وَيَفْتَخِرُونَ بِذَلِكَ، فَإِنَّنَا نُدْرِكُ بِوُضُوحٍ أَنَّ عَدَمَ الْعَمَلِ يُسَمَّى تَكْذِيبًا عِنْدَ اللَّهِ، فَهُمْ حِينَ لَمْ يَعْمَلُوا بِالتَّوْرَاةِ كَانَ حَمْلُهُمْ لَهَا، كَحَمْلِ الْحِمَارِ لِكُتُبٍ عَلَى ظَهْرِهِ، فَهُوَ لَا يَعْمَلُ بِهَا، كَمَا لَا يَعْمَلُونَ هُمْ بِالتَّوْرَاةِ، فَاسْتَحَقُّوا بِذَلِكَ وَصفَهُمْ بِالْمُكَذِّبِينَ بِالتَّوْرَاةِ فِي قَوْلِهِ :

بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ

وَالظُّلْمِ

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

لِكَيْ تَتَّضِحَ النُّقْطَةُ السَّابِقَةُ أَضْرِبُ الْمَثَلَ التَّالِيَ

لِنَفْتَرِضَ أَنَّ زَيْدًا يَقُولُ إِنَّنِي أُصَدِّقُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

(الَّذينَ يَأكُلونَ الرِّبا لا يَقومونَ إِلّا كَما يَقومُ الَّذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيطانُ مِنَ المَسِّ ذلِكَ بِأَنَّهُم قالوا إِنَّمَا البَيعُ مِثلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللَّهُ البَيعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَن جاءَهُ مَوعِظَةٌ مِن رَبِّهِ فَانتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ وَأَمرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَن عادَ فَأُولئِكَ أَصحابُ النّارِ هُم فيها خالِدونَ) [البقرة: ٢٧٥]

لِذَلِكَ الرِّبَا حَرَامٌ، وَلَا شَكَّ فِي حُرْمَتِهِ، وَلَكِنِّي سَوْفَ أُمَارِسُ الرِّبَا، وَهُوَ وَسِيلَةُ رِزْقِي الَّذِي أَقْتَاتُ مِنْهُ.

زَيْدٌ هَذَا بِحَسَبِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ هُوَ كَافِرٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ، لِأَنَّهُ غَيْرُ عَامِلٍ بِهَا، مَثَلُهُ مَثَلُ الْيَهُودِ الَّذِينَ لَمْ يَعْمَلُوا بِحُرْمَةِ سَفْكِ دِمَائِهِمْ وَإِخْرَاجِ انْفُسِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، وَلِذَلِكَ اسْتَحَقَّ الْوَعِيدَ وَهُوَ الْخُلُودُ فِي النَّارِ :

وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ مِنْ حَالِ أَهْلِ النَّارِ.

إِنَّ رَبْطَ الْعَمَلِ بِالتَّصْدِيقِ، وَعَدَم الْعَمَلِ بِالتَّكْذِيبِ، هُوَ أَمْرٌ مَعْلُومٌ بَدَاهَةً، لِأَنَّ الْمَرْءَ مَتَى صَدَّقَ، عَمِلَ لَا مَحَالَةَ، أَمَّا إِذَا لَمْ يَعْمَلْ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ كَاذِبٌ فِي دَعْوَاهُ التَّصْدِيقَ، فَالْعَمَلُ هُوَ مِقْيَاسُ مَعْرِفَةِ الصِّدْقِ مِنْ الْكَذِبِ فِي دَعْوَى الْإِيمَانِ، وَلِذَلِكَ قَالَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ

(الم۝أَحَسِبَ النّاسُ أَن يُترَكوا أَن يَقولوا آمَنّا وَهُم لا يُفتَنونَ۝وَلَقَد فَتَنَّا الَّذينَ مِن قَبلِهِم فَلَيَعلَمَنَّ اللَّهُ الَّذينَ صَدَقوا وَلَيَعلَمَنَّ الكاذِبينَ) [العنكبوت: ١-٣]

فَالْفِتَنُ هِيَ الْمِقْيَاسُ الَّذِي يُعْرَفُ بِهِ صِدْقُ الْمَرْءِ فِي دَعْوَاهُ الْإِيمَانَ مِنْ كَذِبِهِ، وَالْأَمْرُ كُلُّهُ مَرَدُّهُ عَلَى الصِّدْقِ، يَقُولُ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ

(وَإِذ أَخَذنا مِنَ النَّبِيّينَ ميثاقَهُم وَمِنكَ وَمِن نوحٍ وَإِبراهيمَ وَموسى وَعيسَى ابنِ مَريَمَ وَأَخَذنا مِنهُم ميثاقًا غَليظًا۝لِيَسأَلَ الصّادِقينَ عَن صِدقِهِم وَأَعَدَّ لِلكافِرينَ عَذابًا أَليمًا) [الأحزاب: ٧-٨]

أركان الإيمان

بَعْدَ أَنْ عَرَفْنَا أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ التَّصْدِيقُ الْمُصَاحِبُ لِلْعَمَلِ، كَانَ مِنْ الضَّرُورِيِّ بَيَانُ صُوَرٍ عَمَلِيَّةٍ مِنْ ذَلِكَ التَّصْدِيقِ تُحَدِّدُ الْبَوْصَلَةَ لِلْمُؤْمِنِ، وَمِنْ هُنَا أَتَى حَدِيثَ جِبْرِيلَ، حَيْثُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»

[مسلم، صحيح مسلم، ٣٦/١]

وَإِلَيْكَ بَعْضُ تَفْصِيلِ هَذِهِ الْأَرْكَانِ

الْإِيمَانُ بِاَللَّهِ

إنَّ الْإِيمَانَ بِاَللَّهِ لَيْسَ مُجَرَّدَ التَّصْدِيقِ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيٍّ، فَهَذَا يَعْتَرِفُ بِهِ إبْلِيسُ وَأَغْلَبُ الْكُفَّارِ، وَإِنَّمَا يَعْنِي الْعَمَلَ وِفْقًا لِهَذِهِ الْمَعْرِفَةِ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.

فَكَوْنُهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَكَ، وَصَوَّرَكَ، وَشَقَّ سَمْعَكَ، وَبَصَرَكَ، وَخَلَقَ الْأَرْضَ الَّتِي تَعِيشُ عَلَيْهَا، وَالسَّمَاءَ الَّتِي تُظِلُّكَ، وَالرِّزْقَ الَّذِي تَعِيشُ بِهِ، وَكَوْنُهُ وَحْدَهُ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، كُلُّ هَذَا يُتَرْجَمُ عَمَلِيًّا بِأَنَّكَ لَا تَعْبُدُ إلَّا إيَّاهُ، فَلَا تَخْضَعُ وَلَا تُطِيعُ غَيْرَهُ سُبْحَانَهُ، وَلَا تُكَذِّبُ بِمَا أَخْبَرَكَ بِهِ، فَمَتَى لَمْ تَعْبُدْهُ وَحْدَهُ، كُنْتَ كَافِرًا بِاَللَّهِ، وَلَوْ كُنْتَ تُكَرِّرُ بِلِسَانِكَ أَنَّكَ مُؤْمِنٌ بِهِ.

فَالْإِيمَانُ بِاَللَّهِ يَسْتَلْزِمُ الْعَمَلَ، وَلَيْسَ مُجَرَّدَ قَوْلٍ بِاللِّسَانِ، وَإِلَّا فَإِبْلِيسُ يُقِرُّ بِلِسَانِهِ بِأَنَّ اللَّهَ رَبُّهُ :

(قالَ رَبِّ فَأَنظِرني إِلى يَومِ يُبعَثونَ) [ص: ٧٩]

وَلَكِنَّهُ كَفَرَ بِاللَّهِ حِينَ أَصَرَّ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، يَقُولُ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) [الْبَقَرَةِ: ٣٤]

لِذَلِكَ فَتَصَوُّرُ بَعْضِنَا أَنَّ الْإِيمَانَ بِاَللَّهِ مُجَرَّدُ الِاعْتِرَافِ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، هُوَ تَصَوُّرٌ خَاطِئٌ تَمَامًا، فَمَا لَمْ نَعْبُدْ اللَّهَ وَحْدَهُ، فَإِنَّنَا كَافِرِينَ بِاَللَّهِ وَلَوْ لَمْ نَعْتَرِفْ بِهَا.

الْإِيمَانُ بِالْمَلَائِكَةِ

مِنَ الْإِيمَانِ أَيْضًا التَّصْدِيقُ بِالْمَلَائِكَةِ، وَمَا يَنْجُمُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ مَحَبَّةٍ لَهُمْ، فَهُمْ مِثَالٌ لِعِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، وَهَذَا مَا يَسْعَى إِلَيْهِ الْمُسْلِمُ .

إِنَّ فِي الْإِيمَانِ بِالْمَلَائِكَةِ إِيمَانٌ بِقُدْرَةِ اللَّهِ اللَّا مُتَنَاهِيَةٍ، حَيْثُ أَنَّ خَلْقَهُ لَيْسَ مَحْصُورًا فِيمَا نُشَاهِدُهُ، بَلْ إِنَّهُ يَخْلُقُ مَا لَا نَسْتَطِيعُ مُشَاهَدَتَهُ، مِمَّا يَعْنِي أَنَّ الْمَادَّةَ لَيْسَتْ إِلَّا جُزْءًا مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ الَّتِي لَا يَعْلَمُ عَدَدَهَا إِلَّا اللَّهُ .

وَمِنْ ثُمَّ فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِالْمَلَائِكَةِ يُعْطِي لِلْمُؤْمِنِ بُعْدًا غَيْرَ الْبُعْدِ الْمَادِّيِّ، يَنْعَكِسُ فِي تَصَوُّرَاتِهِ عَنْ الْحَيَاةِ وَعَنْ نَفْسِهِ، بِخِلَافِ الْكَافِرِ الْمَادِّيِّ الَّذِي هُوَ فَاقِدٌ لِلْجَوْهَرِ الرُّوحِيِّ، مِمَّا يَجْعَلُ حَيَاتَهُ فَاقِدَةً لِأَيِّ مَعْنًى حَقِيقِيٍّ، وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ.

الْإِيمَانُ بِالْكُتُبِ

سَبَقَ وَذَكَرْتُ فِي تَعْرِيفِ الْإِيمَانِ أَنَّ الْإِيمَانَ بِالْكِتَابِ يَعْنِي الْعَمَلَ بِهِ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِالْكُتُبِ يَعْنِي الْعَمَلَ بِهَا.

قَدْ يَتَسَاءَلُ الْبَعْضُ كَيْفَ يُمْكِنُنَا الْعَمَلُ بِالْكُتُبِ كُلِّهَا وَنَحْنُ لَا نَجِدُهَا، وَالْجَوَابُ يَكْمُنُ فِي الْعَمَلِ بِالرِّسَالَةِ الْخَاتَمِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَهِيَ مُصَدِّقَةٌ لِمَا سَبَقَهَا مِنْ كُتُبٍ وَمُهَيْمِنَةٌ عَلَيْهَا، لِقَوْلِهِ تَعَالَى :

(وَأَنزَلنا إِلَيكَ الكِتابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقًا لِما بَينَ يَدَيهِ مِنَ الكِتابِ وَمُهَيمِنًا عَلَيهِ فَاحكُم بَينَهُم بِما أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِع أَهواءَهُم عَمّا جاءَكَ مِنَ الحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلنا مِنكُم شِرعَةً وَمِنهاجًا وَلَو شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُم أُمَّةً واحِدَةً وَلكِن لِيَبلُوَكُم في ما آتاكُم فَاستَبِقُوا الخَيراتِ إِلَى اللَّهِ مَرجِعُكُم جَميعًا فَيُنَبِّئُكُم بِما كُنتُم فيهِ تَختَلِفونَ) [المائدة: ٤٨]

كَمَا أَنَّ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ نَاسِخَةٌ لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الشَّرَائِعِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى

لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا

لِذَلِكَ الْعَمَلُ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ هُوَ إِيمَانٌ بِالْكُتُبِ كُلِّهَا، الَّذِي هُوَ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ.

الْإِيمَانُ بِالرُّسُلِ

إِنَّ الْإِيمَانَ بِالرُّسُلِ يَتَجَاوَزُ الِاعْتِرَافَ بِأَنَّهُمْ مُرْسَلُونَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِلَى طَاعَتِهِمْ وَاتِّبَاعِهِمْ، يَقُولُ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ

(قُل إِن كُنتُم تُحِبّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعوني يُحبِبكُمُ اللَّهُ وَيَغفِر لَكُم ذُنوبَكُم وَاللَّهُ غَفورٌ رَحيمٌ۝قُل أَطيعُوا اللَّهَ وَالرَّسولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الكافِرينَ) [آل عمران: ٣١-٣٢]

لِذَلِكَ فَلَيْسَ لَنَا الْخِيَارُ فِي طَاعَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاتِّبَاعِهِ، لِأَنَّهُ لَا إِيمَانَ بِدُونِهَا.

الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

أَيْضًا يَتَجَاوَزُ الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ مُجَرَّدَ الِاعْتِرَافِ بِالْبَعْثِ، إِلَى الْعَمَلِ بِمَا يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ الِاعْتِرَافَ.

فَمَنْ يُؤْمِنُ حَقًّا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، لَنْ يَكُونَ لَهُ إِرَادَةٌ إِلَّا لِلْفَوْزِ بِمَرْضَاتِ اللَّهِ، وَالنَّجَاةِ مِنْ النَّارِ، وَلِذَلِكَ إِرَادَةُ الدُّنْيَا دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ إِيمَانِ الْمَرْءِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمِنْ ثَمَّ اسْتَحَقَّ صَاحِبُهَا الْوَعِيدَ الشَّدِيدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى

(مَن كانَ يُريدُ الحَياةَ الدُّنيا وَزينَتَها نُوَفِّ إِلَيهِم أَعمالَهُم فيها وَهُم فيها لا يُبخَسونَ۝أُولئِكَ الَّذينَ لَيسَ لَهُم فِي الآخِرَةِ إِلَّا النّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعوا فيها وَباطِلٌ ما كانوا يَعمَلونَ) [هود: ١٥-١٦]

إِنَّ الْإِيمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ هُوَ الْمُحَرِّكُ الْفِعْلِيُّ لِلْإِيمَانِ، لِأَنَّ ابْنَ آدَمَ إِذَا صَدَّقَ فِعْلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

(فَاعبُدوا ما شِئتُم مِن دونِهِ قُل إِنَّ الخاسِرينَ الَّذينَ خَسِروا أَنفُسَهُم وَأَهليهِم يَومَ القِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الخُسرانُ المُبينُ۝لَهُم مِن فَوقِهِم ظُلَلٌ مِنَ النّارِ وَمِن تَحتِهِم ظُلَلٌ ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقونِ) [الزمر: ١٥-١٦]



وَتَصَوَّرَ نَفْسَهُ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ، فَإِنَّهُ لَا شَكَّ سَوْفَ يَخَافُ خَوْفًا شَدِيدًا، يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَيَسَهِّلُ عَلَيْهِ طَاعَةَ اللَّهِ، أَسْأَلُ اللَّهَ انْ يَنْجَنِي وَإِيَّاكَ مِنْ هَذَا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ آمِينَ

إِنَّ هَذَا الْخَوْفَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ لَهُ نَتَائِجُ إِيجَابِيَّةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَهَمِّهَا :

التَّوَثُّقُ فِي أَمْرِ الدِّينِ

أَيْ أَنَّ الشَّخْصَ الَّذِي يَخَافُ اللَّهَ لَنْ يَقْبَلَ أَنْ يَدِينَ اللَّهَ بِالظَّنِّ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَتَأَكَّدَ كُلُّ التَّأَكُّدِ مِمَّا يَدِينُ اللَّهَ بِهِ، فَلَا فُرْصَةَ غَيْرُ هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَالْمُخَاطَرَةُ كَبِيرَةٌ، فَهِيَ إِمَّا سَعَادَةٌ أَبَدِيَّةٌ، أَوْ شَقَاءٌ أَبَدِيٌّ، لِذَلِكَ لَنْ يَقْبَلَ فَتْوَى بِغَيْرِ دَلِيلٍ صَرِيحٍ وَاضِحٍ لَا يَقْبَلُ الشَّكَّ.

الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا

فَالدُّنْيَا لَمْ تَعُدْ بِدَارِ قَرَارٍ، لِأَنَّهَا حَرْفِيًّا لَا تُسَاوِي شَيْئًا، مُقَارَنَةً بِالْآخِرَةِ، لِأَنَّ الْآخِرَةَ أَبَدِيَّةٌ بَيْنَمَا الدُّنْيَا مَهْمَا طَالَتْ مَصِيرُهَا إِلَى زَوَالٍ

إِنَّ الزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا يَنْتِجُ عَنْهُ أَمْرَيْنِ فِي غَايَةِ الْأَهَمِّيَّةِ أَيْضًا وَهُمَا:

تَزْكِيَةُ النَّفْسِ مِنَ الْخِصَالِ السَّيِّئَةِ، وَالتَّخَلُّقُ بِالْخِصَالِ الْحَسَنَةِ، لِأَنَّ سَبَبَ كُلِّ الْخِصَالِ السَّيِّئَةِ هُوَ حُبُّ الدُّنْيَا، فَالْكَذِبُ، وَالنِّفَاقُ، وَالْغَدْرُ، وَغَيْرُهَا كُلُّهَا، بِسَبَبِ حُبِّ الدُّنْيَا، وَالِاغْتِرَارِ بِهَا، بَيْنَمَا الْخِصَالُ الْحَسَنَةُ هِيَ السَّبِيلُ الْوَحِيدُ لِلنَّجَاةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا، نَعَمْ فَسَبَبُ الشَّقَاءِ هُوَ التَّعَلُّقُ بِالدُّنْيَا، فَإِذَا زَهِدَ الْمَرْءُ فِي الدُّنْيَا، لَمْ تَقْدِرْ الدُّنْيَا عَلَى أَنْ تُسَبِّبَ لَهُ حُزْنًا، فَهِيَ أَتْفَهُ مِنْ أَنْ تُحْزِنَهُ.

الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ

إِنَّ الْإِيمَانَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ يَعْنِي أَنَّهُ لَا جَزَعَ، وَلَا حَسْرَةَ عَلَى مَا يَحْدُثُ لِلْمَرْءِ مِنْ مَكَارِهٍ، وَإِنَّمَا تَقَبُّلٌ، وَرِضًا بِقَدَرِ اللَّهِ مَهْمَا كَانَ

إِنَّ نِعْمَةَ الرِّضَا بِقَدَرِ اللَّهِ تُورِثُ فِي النَّفْسِ رَاحَةً لَا مَثِيلَ لَهَا، تَجْعَلُ الْمَرْءَ يَطْمَئِنُّ أَنَّهُ لَيْسَ مَتْرُوكًا لِلصُّدَفِ، فَكُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ مِنَ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَلَاقَةُ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ

بَعْدَ أَنْ عَرَفْنَا الْإِسْلَامَ فِي الْمَقَالِ السَّابِقِ، وَعَرَفْنَا الْإِيمَانَ فِيمَا سَبَقَ مِنْ هَذِهِ السُّطُورِ، فَإِنَّنَا نَسْتَنْتِجُ أَنَّ الْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ مُسَمَّيَانِ لِنَفْسِ الْمُسَمَّى، فَالْإِسْلَامُ هُوَ أَنْ تُسَلِّمَ نَفْسَكَ لِلَّهِ وَحْدَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَتُطِيعَهُ وَحْدَهُ، وَالْإِيمَانُ أَيْضًا هُوَ طَاعَةُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

إِذَا أَرَدْنَا التَّفْصِيلَ، فَإِنَّنَا نَقُولُ أَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ قَرَارٌ بِأَنْ يُسَلِّمَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ لِلَّهِ، وَالْإِيمَانُ هُوَ تَنْفِيذُ ذَلِكَ الْقَرَارِ عَمَلِيًّا، وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:

(قالَتِ الأَعرابُ آمَنّا قُل لَم تُؤمِنوا وَلكِن قولوا أَسلَمنا وَلَمّا يَدخُلِ الإيمانُ في قُلوبِكُم وَإِن تُطيعُوا اللَّهَ وَرَسولَهُ لا يَلِتكُم مِن أَعمالِكُم شَيئًا إِنَّ اللَّهَ غَفورٌ رَحيمٌ) [الحجرات: ١٤]

فَالْأَعْرَابُ أَسْلَمُوا، مِنْ حَيْثُ أَنَّهُمْ أَخَذُوا قَرَارَ الْإِسْلَامِ ظَاهِرِيًّا، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدُ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُنَفِذُوا بَعْدُ قَرَارَ الْإِسْلَامِ الْمُتَمَثِّلُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ طَاعَةً مُطْلَقَةً، نَابِعَةً عَنْ تَصْدِيقٍ لَا يَتَسَرَّبُ إِلَيْهِ الشَّكُّ، حَيْثُ قَالَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ حَاصِرًا الْمُؤْمِنِينَ فِي :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصّادِقُونَ) [الْحُجُرَاتُ: ١٥]

فَمَنْ آمَنَ وَلَمْ يَرْتَبْ وَجَاهَدَ بِمَالِهِ وَنَفْسِهِ هُوَ الصَّادِقُ فِي إِيمَانِهِ.

إِنَّ قَوْلَ أَنَّ الْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ إِذَا اجْتَمَعَا، أَفَادَ الْإِسْلَامُ الْأَعْمَالَ الظَّاهِرَةَ، وَأَفَادَ الْإِيمَانُ الْأَعْمَالَ الْقَلْبِيَّةَ، سَبَبُهُ فَصْلُ الْعَمَلِ عَنْ مُسَمَّى الْإِيمَانِ، وَهَذَا مَا بَيَّنَّا بُطْلَانَهُ سَابِقًا، حَيْثُ أَنَّ الْإِيمَانَ إِنَّمَا يُطْلَقُ عَلَى الْعَمَلِ.

وَأَيْضًا تَرُدُّ عَلَيْهِ الْآيَةُ السَّابِقَةُ، فَالْجِهَادُ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَرَبُّنَا هُنَا عَدَّهُ مِنْ خِصَالِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، الَّتِي لَا إِيمَانَ بِدُونِهَا .

تَصَوُّرُنَا الْحَالِيُّ عَنِ الْإِيمَانِ

لِلْأَسَفِ الشَّدِيدِ يَبْرُزُ تَنَاقُضٌ شَدِيدٌ بَيْنَ تَعْرِيفِنَا لِلْإِيمَانِ نَظَرِيًّا، وَبَيْنَ تَطْبِيقِهِ عَمَلِيًّا، وَإِلَيْكَ بَيَانُ ذَلِكَ، فَنَحْنُ نُعَرِّفُ الْإِيمَانَ نَظَرِيًّا بِأَنَّهُ تَصْدِيقٌ بِالْقَلْبِ، وَقَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ، وَلَكِنَّنَا عِنْدَ التَّطْبِيقِ نُسْقِطُ الْعَمَلَ مِنْ مُسَمَّى الْإِيمَانِ وَإِلَيْكَ الدَّلِيلُ

إِذَا أَقَرَّ شَخْصٌ مَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى :

(يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا إِنَّمَا الخَمرُ وَالمَيسِرُ وَالأَنصابُ وَالأَزلامُ رِجسٌ مِن عَمَلِ الشَّيطانِ فَاجتَنِبوهُ لَعَلَّكُم تُفلِحونَ) [المائدة: ٩٠]

وَأَقَرَّ بِحُرْمَةِ الْخَمْرِ، وَلَكِنَّهُ أَصَرَّ عَلَى شُرْبِ الْخَمْرِ وَعَصْرِهِ وَبَيْعِهِ، هَذَا الشَّخْصُ إِذَا سَأَلْتَ عُلَمَاءَ الْأُمَّةِ هَلْ يُعْتَبَرُ مُؤْمِنًا بِالْآيَةِ السَّابِقَةِ؟

فَإِنَّهُمْ سَوْفَ يَقُولُونَ نَعَمْ، هُوَ مُؤْمِنٌ بِهَا، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ عَدَمِ عَمَلِهِ بِهَا.

مِمَّا يَعْنِي أَنَّهُمْ أَسْقَطُوا الْعَمَلَ مِنْ مُسَمَّى الْإِيمَانِ فِعْلِيًّا، رَغْمَ كَوْنِهِمْ يُثْبِتُونَهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَهُنَا يَبْرُزُ التَّنَاقُضُ، وَالَّذِي لَهُ عَوَاقِبُ وَخِيمَةٌ جِدًّا سَوْفَ نَتَحَدَّثُ عَنْهَا فِيمَا يَلِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

بِالنِّسْبَةِ لَنَا نَحْنُ، فَإِنَّنَا نَقُولُ أَنَّ هَذَا الشَّخْصَ كَافِرٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَبِالتَّالِي هُوَ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، وَدَلِيلُنَا مَا تَقَدَّمَ مِنْ آيَاتٍ تَجْعَلُ الْإِيمَانَ هُوَ الْعَمَلُ، وَحَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَنْتَهِبُ نُهْبَةً، يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»

[البخاري ,صحيح البخاري ,3/136]

فَوَقْتَ مُمَارَسَةِ الْجَرِيمَةِ، وَوَقْتَ إِصْرَارِ الْمَرْءِ عَلَيْهَا، يَنْتَفِي الْإِيمَانُ تَمَامًا عَنْ الشَّخْصِ حَتَّى يَتُوبَ إِلَى اللَّهِ.

إِنَّ تَنَاقُضَهُمْ السَّابِقُ خَرَجَ فِي صُورَةِ مَقُولَةٍ فِي غَايَةِ الْخُطُورَةِ وَهِيَ :

الْإِيمَانُ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ

حَيْثُ تَعْنِي بَقَاءَ الْإِيمَانِ وَقْتَ الْمَعْصِيَةِ وَهَذَا مُنَافٍ لِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السَّابِقِ، كَمَا أَنَّهُ مُنَافٍ لِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ الَّتِي هِيَ الطَّاعَةُ، وَأَنَّى أَنْ تَكُونَ الطَّاعَةُ وَالْمَعْصِيَةُ سِيَّانِ.

نَعَم الْإِيمَانُ يَزِيدُ بِالْمَوْعِظَةِ، وَبِالتَّدَبُّرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى :

(إِنَّمَا المُؤمِنونَ الَّذينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَت قُلوبُهُم وَإِذا تُلِيَت عَلَيهِم آياتُهُ زادَتهُم إيمانًا وَعَلى رَبِّهِم يَتَوَكَّلونَ) [الأنفال: ٢]

وَبِالْمُجَاهَدَةِ فِي اللَّهِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) [الْعَنْكَبُوتِ: ٦٩]

كَمَا أَنَّهُ يَضْعُفُ بِطُولِ الْعَهْدِ، وَلَيْسَ لَهُ عَلَاقَةٌ بِالْمَعْصِيَةِ، فَوَقْتَ مُمَارَسَةِ الْمَعْصِيَةِ يَنْتَفِي الْإِيمَانُ أَصْلًا كَمَا نَصَّ الْحَدِيثُ السَّابِقُ.

لَيْسَ مَعْنَى كَلَامِي هَذَا، أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَقَعُ فِي الْمَعْصِيَةِ مُطْلَقًا، أَوْ يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الْوُقُوعُ فِي الْمَعْصِيَةِ، أَوْ أَنَّهُ يَكْفُرُ بِمُجَرَّدِ وُقُوعِهِ فِي الْمَعْصِيَةِ، فَالْمُؤْمِنُ يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ فِي الْمَعْصِيَةِ وَلَكِنَّهُ يَسْتَغْفِرُ وَيَتُوبُ، وَلَا يُصِرُّ عَلَيْهَا أَبَدًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى:

(وَسارِعوا إِلى مَغفِرَةٍ مِن رَبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرضُهَا السَّماواتُ وَالأَرضُ أُعِدَّت لِلمُتَّقينَ۝الَّذينَ يُنفِقونَ فِي السَّرّاءِ وَالضَّرّاءِ وَالكاظِمينَ الغَيظَ وَالعافينَ عَنِ النّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحسِنينَ۝وَالَّذينَ إِذا فَعَلوا فاحِشَةً أَو ظَلَموا أَنفُسَهُم ذَكَرُوا اللَّهَ فَاستَغفَروا لِذُنوبِهِم وَمَن يَغفِرُ الذُّنوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَم يُصِرّوا عَلى ما فَعَلوا وَهُم يَعلَمونَ۝أُولئِكَ جَزاؤُهُم مَغفِرَةٌ مِن رَبِّهِم وَجَنّاتٌ تَجري مِن تَحتِهَا الأَنهارُ خالِدينَ فيها وَنِعمَ أَجرُ العامِلينَ) [آل عمران: ١٣٣-١٣٦]

وَإِنْ شَاءَ اللَّهُ سَوْفَ أُبَيِّنَ بِالتَّفْصِيلِ فِي مَقَالٍ قَادِمٍ مَوْضُوعَ الْمَعْصِيَةِ فِي الْإِسْلَامِ، وَمَتَى تَكُونُ زَلَّةً، صَاحِبُهَا يَبْقَى مُسْلِمًا، وَمَتَى تَكُونُ كُفْرًا مُخْرِجًا مِنْ الْمِلَّةِ بِإِذْنِ اللَّهِ.

تَأْثِيرُ تَصَوُّرِنَا عَنِ الْإِيمَانِ عَلَى وَاقِعِنَا

إِنَ تَصَوُّرَنَا السَّابِقَ عَنِ الْإِيمَانِ جَعَلَنَا حَرْفِيًّا نَكُونُ نُسْخَةً طِبْقَ الْأَصْلِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَنَقُولُ بِالضَّبْطِ مَا قَالُوا :

(وَقالوا لَن تَمَسَّنَا النّارُ إِلّا أَيّامًا مَعدودَةً قُل أَتَّخَذتُم عِندَ اللَّهِ عَهدًا فَلَن يُخلِفَ اللَّهُ عَهدَهُ أَم تَقولونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعلَمونَ) [البقرة: ٨٠]

فَنَحْنُ مَا دُمْنَا نُثْبِتُ الْإِسْلَامَ لِلْعَاصِي الْمُصِرِّ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، هَذَا يَعْنِي أَنَّنَا نَقُولُ لَهُ أَنَّهُ سَوْفَ يَدْخُلُ النَّارَ أَيَّامًا مَعْدُودَةً، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ مَصِيرُهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَهَذَا بِالضَّبْطِ مَا قَالَهُ أَهْلُ الْكِتَابِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ.

هَذِهِ الْعَقِيدَةُ الْمُشَوَّهَةُ الَّتِي تُصَوِّرُ لِعُبَّادِ الْهَوَى أَنَّهُمْ مُسْلِمِينَ، أَنْتَجَتْ جِيلًا يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:

(فَخَلَفَ مِن بَعدِهِم خَلفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوفَ يَلقَونَ غَيًّا) [مريم: ٥٩]

فَصِرْتَ تَجِدُ الْوَاحِدَ يَقُولُ لَكَ أَنَا مُسْلِمٌ، وَلَكِنِّي لَا أُصَلِي، وَأَفْعَلُ مَا أَشَاءُ، وَمَصِيرِي الْجَنَّةَ بَعْدَ فَتْرَةٍ مِنْ الْعَذَابِ فِي النَّارِ، وَقَدْ لَا أُعَذَّبُ فَيُغْفَرُ لِي مِنْ خِلَالِ الشَّفَاعَةِ، وَكَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُنَزِّلْ الْآيَةَ السَّابِقَةَ، أَوْ كَأَنَّ فِي آذَانِنَا وَقْرٌ، وَعَلَى قُلُوبِنَا غُلْفٌ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ

إِنَّ هَذِهِ الْعَقِيدَةَ الْفَاسِدَةَ هِيَ أَخْطَرُ مَا تَعَرَّضَتْ لَهُ الْأُمَّةُ، لِأَنَّهَا حَرَّفَتِ الدِّينَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ، مِمَّا تَسَبَّبَ فِي الذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ الَّتِي نَتَخَبَّطُ فِيهَا مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ سَنَةٍ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ

الْخَاتِمَةُ

إِذَا قَرَأْتَ الْآيَةَ السَّابِقَةَ :

(فَخَلَفَ مِن بَعدِهِم خَلفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوفَ يَلقَونَ غَيًّا) [مريم: ٥٩]

ثُمَّ وَاصَلْتَ الْقِرَاءَةَ، فَإِنَّكَ سَوْفَ تَجِدُ الْبِشَارَةَ :

(إِلّا مَن تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحًا فَأُولئِكَ يَدخُلونَ الجَنَّةَ وَلا يُظلَمونَ شَيئًا۝جَنّاتِ عَدنٍ الَّتي وَعَدَ الرَّحمنُ عِبادَهُ بِالغَيبِ إِنَّهُ كانَ وَعدُهُ مَأتِيًّا۝لا يَسمَعونَ فيها لَغوًا إِلّا سَلامًا وَلَهُم رِزقُهُم فيها بُكرَةً وَعَشِيًّا۝تِلكَ الجَنَّةُ الَّتي نورِثُ مِن عِبادِنا مَن كانَ تَقِيًّا) [مريم: ٦٠-٦٣]

لِذَلِكَ عَلَيَّ أَنَا وَأَنْتَ أَنْ نُبَادِرَ إِلَى التَّوْبَةِ، وَنَعْلَمَ أَنَّ مَعْصِيَةَ اللَّهِ لَيْسَتْ بِالْأَمْرِ الهَيِّنِ، وَأَنَّهُ لَنْ يَنْفَعَنَا الْكَذِبُ عَلَى أَنْفُسِنَا بِمُعْتَقَدَاتٍ يُكَذِّبُهَا الْقُرْآنُ، فَرَبُّنَا قَالَ تَعْقِيبًا عَلَى قَوْلِ الْيَهُودِ أَنَّهُمْ لَنْ يَدْخُلُوا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً :

(بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ۝وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [الْبَقَرَةُ: ٨١-٨٢]

لِذَلِكَ وَجَبَ الْحَذَرُ مِنْ كَسْبِ السَّيِّئَاتِ، وَأَنْ تُحِيطَ بِنَا قَبْلَ أَنْ نَخْرُجَ مِنْهَا بِتَوْبَةٍ .

أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَنِي وَإِيَّاكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.